الأدب العربي في المغرب

أبو العباس أحمد المقرى

١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادى الشرايبى

— ١ —

إننا نشاهد ، بعلء الأسف ، كثرةً مفكرةً من شباب المغرب ورجاله ، يساور نفوسهم ضعف الثقة وارتياب مؤلم فى ماضيهم القوى وتراثهم الجليل . فنجدهم لذلك يتأففون ويضجرون كلما عرضت عليهم صورة من ذلك الماضى الزاهر ، ويكيلون للمغرب والمغاربة عواصف من النقد اللاذع والسخط الشديد.

ولعل منشأ ذلك ، فيما نرى ، هو الجهل بما للمغرب فى عصوره الغابرة من روعة وسمو يفوقان كثيراً ما يتخيله أولئك فى تاريخ المغرب

ولو أنهم عمدوا إلى الوقوف على بعض من تلك الآثار الجليلة ، واستعراض النماذج المتناثرة فى ثنايا الكتب ، لوجدوا فى سجل المغرب من الصور الطريفة الرائعة ما يكون غذاء لروحهم المجدبة ، ورياً لنفوسهم الظمأى !

ولعلهم إن فعلوا فتذوقوا من ذلك الجمال الحى الخالد ، ونهلوا من تلك المتع اللذيذة ، فسوف يجدون فيه المرهم الشافى لنفوسهم المريضة بداء اليأس ، ويستبدلون بتشاؤمهم القاتل تفاؤلاً

— ٢ —

وها نحن أولاء نجلى لهم اليوم صورة حية من ذلك التراث المجيد ، وننتزع لهم من بين الصور الكثيرة مثلاً سامياً لنهضة الأدب العربى فى المغرب فى القرن الحادى عشر :

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقَّرى [1] التلمسانى المالكى الأديب الكبير ، الشاعر المؤرخ ، ولد فى تلمسان ، ونشأ بها فى بيت علم وأدب ، وثقف كثيراً من الفنون على عمه أبى عثمان [2] سعيد المقرى الأديب العالم الشهير ، وأتقن اللغة العربية وآدابها ، وبرع فى معرفة أخبار العرب وأنسابها .

(١) نسبة إلى مقر بفتح الميم والقاف المشددة : قرية من قرى تلمسان
(٢) اليواقيت الثمينة

وكان له ميل شديد واطلاع واسع على الآداب العربية وتاريخها فى مختلف العصور ، وأولع من لدن نشأته بالمطالعة والتنقيب عن أحوال الدول الاسلامية ، واستظهار آثارها ، وبصفة خاصة ما كان متعلقاً منها بدولة العرب فى الأندلس ، والوقوف على سر عظمتها ، وتطورها بين صعود ونزول ، وكيف عبثت يد الزمان بتلكم الآثار الحافلة التى خلدها العرب فى أوربا

شب الفتى ، خصب الفكر ، متقد الذهن ، واسع الذاكرة . يتقلب فى فنون من الحديث ، ويحلق فى جو رائع من الخيال . يتنقل بين قصور قرطبة ومغانيها ، ويقلب نظره الحائر فى بدائع الحمراء ومجاليها ، ثم يعود فيسترحم القدر إشفاقاً على مجالس أدبها الممتعة ونواديها

وقد حدثته نفسه الطموح إلى مشاهدة آثار الفن الأندلسى الجميل بالذهاب إلى « فاس » وريثة الحضارة الأندلسية ، ورؤية هذه الآثار عن كثب ، إذ هى صورة مصغرة من الحياة الأندلسية ، بما فيها من مبان وآثار ، ومجالس علمية وأدبية تضم أئمة الأدب وفطاحل العلم . فقصد فاس سنة ١٠٠٩ وملأ بها وطابه ، وأخذ عن جلة العلماء كالشيخ القطار ، وابن أبى النعيم ، وأحمد بابا السودانى التمبكتى وغيرهم ؛ وأقام بفاس ميمون الحظ بين مظاهر الاجلال والاحترام إلى أن صار مفتى فاس وخطيب « جامعة القرويين » ؛ ثم رحل إلى مصر والشام ، وتردد على الحجاز كثيراً ، وألف بالقاهرة كتابه « نفح الطيب » . وله مطارحات ومساجلات مع أدباء مصر والشام

— ٣ —

آثاره الأدبية : أبو العباس المقرى متشعب النواحى كثير المباحث لمن شاء دراسته . له آثار قيمة فى الفقه والكلام والأدب والتاريخ ، وشعر متناثر فى ثنايا كتابيه الجليلين : « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب [1] » و « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض »

وقد قصرنا هذا البحث على الناحية الأدبية ، إذ كانت هى البارزة فى حياته ، فهو « حافظ المغرب وجاحظ البيان [2] » شاعر

(١) فى أربعة مجلدات ضخام طبع مرتين وفيه نقص كثير عن النسخ المخطوطة نرجو تداركه عند إعادة طبعه . وأزهار الرياض فى أربعة مجلدات أيضاً ، طبع الجزء الأول منه (٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٣

رقيق العاطفة ، يصطبغ شعره بلون الأدب الأندلسي في الرقة والجزالة ، والسهولة والامتناع

ولا بدع ، إذا وجدنا ذلك الطابع بارزاً في آثاره الأدبية ، فقد رأيناه كلفاً بالفن الأندلسي وآثار العرب في الأندلس منذ النشأة إلى حد التوهم أنه كان يعيش في ذلك الوسط الخصب المشبوب العاطفة

وقد قال في أكثر أغراض الشعر : في الغزل ، والشوق ، والمدح ، والوصف ، والحكم ، والعتاب ، والذكرى المؤلمة ، والقصص الشعرى

وإذ كان الشطر المهم من حياته قد أمضاه في الشرق بعيداً عن الأهل والوطن ، نائياً عن معاهد الصبي ومسارح الطفولة الأولى التي لم يبق في ذهنه منها إلا الذكريات المرة الممضة ، فنستطيع أن نكشف كيف كان الشوق والحنين أبرز صفة في شعره ؛ ولنسق لك مثالاً من ذلك . فمن قوله وهو في الشام يتشوق إلى بلاد المغرب :

كساها الحيا بُرد الشباب فانها بلاد بها عق الشباب تمائمى
ذكرت بها عهد الصبى فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالى لا ألوى على رشد ناصح عنانى ، ولا أثنيه عن غى لائم
أنال سهادى من عيون نواعس وأجنى مرادى من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف من النهر ينساب انسياب الأراقم
تمر الينا ، ثم عنا ، كأنها حواسد تمشى بيننا بالنمائم
وبتنا ، ولا واش نخاف كأنما حللنا مكان السر من صدر كاتم

واسمعه يقول :

شربت حميا البين صرفاً وطالما جلوت حميا الوصل وهو وسيم
فيماد دمعى أن تنوح حمامة وميقات شوقى أن يهب نسيم

ويثور كامن عواطفه كلما سمع ترجيع حمامة بصوتها الشجى ، فيصف لك حاله عند سماعها بهذه القطعة الرقيقة :

رُب ورقاء فى الدياجى تنادى إلفها فى غصونها الميادة
فتثير الهوى بلحن عجيب يشهد السمع أنها عوادة (١)
كلما رجّعت توجعت حزناً فكأنا فى وجدنا نتبادة (٢)

ثم يحاول أن يطفىء غلة ذلك الشوق المضنى بالصبر ، ويتخذه شعاراً وسلوة ، فيسير على سنن غيره من الشعراء ، ولكنه يخفق إذ يجد أن الصبر معناه إلهاب نار الشوق :

وانى لأدرى أن فى الصبر راحة ولكن انفاقى على الصبر من عمرى
فلا تُطف نار الشوق بالشوق طالباً سلواً ، فان الجمر يسعر بالجمر

ويعاوده الأمل فى أن يلمس غرة من الدهر ، فيلتقى بعد طول البين ، ويجتمع بعد أليم الفراق

فنلتقى ، وعوادى الدهر غافلة عما نروم ، وعقد البين محلول
والدار آنسة والشمل مجتمع والطير صادحة والروض مطلول

ولو أننا ذهبنا فى هذا الباب نقتطف قطعاً من زهراته المتناثرة ، لاقتضى ذلك منا وقتاً أوسع مما افترضناه لهذا البحث من الايجاز

وفى الوصف نجتزىء بهذه القطعة :

ورياض تختال منها غصون فى برود من زهرها وعقود
فكأن الأدواح فيها غوان تتبارى زهوا بحسن القدود
وكأن الأطيار فيها قيانٌ تتغنى فى كل عود بعود !
وكأن الأزهار فى حومة الرو ض سيوفٌ تُبسّلُ تحت بنود

ويبهره ما يرى فى جنة الدنيا « دمشق » ضريبة الأندلس والمغرب فى بساتينها ، وأنهارها ، وجداولها ، فتعاوده الذكرى ويقول :

ذكرتنى الورقاء أيام أنس سالفات فبت أذرى الدموعا
ووصلت السهاد شوقا لحبى وغراما ، وقد هجرت الهجوعا
كيف يخلو قلبي من الذكر يوما وعلى حبهم حنيت الضلوعا ؟
كلما أولع المذول بعتبى فى هواهم ، يزداد قلبي ولوعا !

ثم يقول فى وصفها :

محاسن الشام أجلى من أن تحاط بحد
لولا حمى الشرع قلنا ولم نقف عند حد :
كأنها معجزات مقرونة بالتحدى

ويقول :

قال لى ما تقول فى الشام حبر كلما لاح بارق الحسن شامه ؟ (١)
قلت ماذا أقول فى وصف قطر هو فى وجنة المحاسن شامه ! (٢)

(البقية فى العدد القادم) عبد الهادى الشرايبى

(١) عوادة : توقع على العود ، ملحنة أغرودتها
(٢) بادهه : فاجأه يريد أن نتبارى فى إظهار الوجد

(١) شامه : نظره (٢) الشامة : الخال ، نقطة سوداء تكون فى الوجنة أو فى الجبين ، تزيد جماله سحراً